الفصل الثالث

العرب حين وفاة النبي

بينما يختلف أهل المدينة ثم يتفقون على بيعة أبي بكر إذا النعاة يسرعون إلى القبائل يحملون إليها النبأ بوفاة النبي . والواقع أنه لم يَسِرْ نبأ فى بلاد العرب بسرعة البرق ما سار النبأ بوفاة رسول الله . ولم يلبث العرب حين ذاع النبأ فيهم أن اشرأبّت أعناقهم من كل صوب يريدون أن يلقوا عن عواتقهم سلطان المدينة ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مبعث محمد إليهم وانتشار أمره فيهم . لذلك ارتد العرب فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، وكثر أعداء المسلمين ؛ فأصبح هؤلاء لفقد نبيهم كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية .

خلاف المهاجرين والأنصار بالمدينة

لقد رأيت ما نجم بالمدينة بين المهاجرين والأنصار من نزاع على خلافة الرسول . ولولا حكمة أبي بكر وعمر وما أراده الله لدينه من النصر لما انحسم النزاع كما انحسم ، ولما انتهى إلى النتيجة الموفقة التى انتهى إليها .

أهل مكة يهمون بالردة

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشيء المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها ؛ فقد همّ أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عَتّاب بن أسيد عامل رسول الله على أمّ القرى فتوارى منهم . ولولا أن قام فيهم سُهَيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر وفاة النبي : « إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه » لترددوا فى موقفهم . على أن سهيلا أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره . أضاف : « والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً فى نفوسهم من التهديد ، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردّتهم . فقد رأوا الأمر بالمدينة آل إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله ، واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

وهمّت ثقيفٌ بالطائف أن ترتد ، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي

موقف ثقيف بالطائف

عليهم فقال : « يا أبناء ثقيف . كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد ». وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حُنَيْن ، وذكرت ما بينها وبين مكة من أواصر النسب والقربى ، فاستمسكت بالإسلام . ولعل قيام أبي بكر بالخلافة ونهوض أهل مكة إلى جانبه فى أمرها . قد كان له من الأثر فى ثقيف مثل ما كان له فى أمّ القرى .

موقف سائر العرب

كذلك ثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها . ثبتت عليه مُزَيْنَةُ وغِفَار وجُهَيْنة وبَلِيّ وأشجع وأسلم وخُزاعة . أما سائر العرب فاضطرب أمرهم ، فارتد منهم من كان عهدهم بالإسلام قريبًا ، ومن لم تكن نفوسهم قد أُشْرِبتْ تعاليمه ، وتبلبلت عقائد سائرهم ، ثم كان خيرهم من بقى على الإسلام ولم يرض مع ذلك عن بقاء السلطان لأهل المدينة مهاجريهم والأنصار . وهؤلاء رأوا فى أداء الزكاة جزيةً تفرضها المدينة عليهم ، وتأباها نفوسهم التى ألفت الاستقلال عن كل سلطان . وهم إنما أدّوها منذ أسلموا إلى الرسول الذى يوحى إليه ، والذى اصطفاه الله من بين عباده نبيًّا . أمَّا وقد اختار النبى جوار ربه ، فأهل المدينة جميعًا لا يفضلونهم فى شىء ، وليس لهم ما كان للنبى من حق فى المطالبة بها .

كانت القبائل التى أبت إيتاء الزكاة هى القبائل القريبة من المدينة من عَبْس وذبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة ومن غَطَفان وفَزارة . أما الذين قَصَتْ ديارهم عن المدينة فكانوا أكثر إلحاحًا فى ردّتهم ، وكان أكثرهم يتابعون رجالا منهم ادّعَوُا النبوة ، كطُلَيْحة فى بنى أسد ، وسَجاح فى بنى تميم ، ومُسَيْلمة فى اليمامة ، وذى التاج لقيط بن مالك فى عُمان . هذا إلى ما كان من اتباع طائفة كبيرة من أهل اليمن للأسود العَنْسىّ ، ومتابعتهم إياه إلى حين مقتله ، ثم إمعانهم بعد ذلك فى الفتنة والانتقاض إلى آخر حروب الردّة .

العوامل التى أدت إلى الانتقاض والردة

وليست ترجع هذه الصورة فى انتقاض الحواضر والبوادى على سلطان قريش وفى ردّتها عن الإسلام إلى موقعها الجغرافى من المدينة وكفى ، بل ترجع كذلك

إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية ، بدت آثارها وبرزت فى الفترة الأخيرة من حياة الرسول .

فالإسلام لم ينتشر ولم يستقر فى الأصقاع النائية عن مكة والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغزاة حنين وحصار الطائف . أما إلى ذلك العهد فقد ظل نشاط رسول الله محصوراً فى المنطقة المحيطة بالمدينتين المقدستين . لم يخرج الإسلام عن حدود مكة إلا قبيل الهجرة إلى يثرب . ومن بعد الهجرة ظلت جهود النبى سنوات متعاقبة موجهة إلى كفالة الحرية للدعوة الإسلامية فى موطنها الجديد . فلما قضى المسلمون على سلطان اليهود بيثرب ، ثم لما فتحوا مكة ، بدأ العرب يدينون بدين الحق ، وأقبلت الوفود تترى من أنحاء شبه الجزيرة تعلن إسلامها ، وجعل النبى يبعث إليهم عمّاله يفقهونهم فى الدين ويجبون منهم الصدقات .

العوامل العربية

طبيعىٌ ألاّ يتأصل الدين فى نفوس هذه القبائل ما تأصل فى نفوس أهل مكة والمدينة ، وفى نفوس العرب القريبين منهما . لقد اقتضى استقرار الإسلام فى منبته عشرين سنة كاملة ، جاهده خصومه أثناءها أشد الجهاد ، وناصبوه عداوة اتصلت على السنين ، ثم كان من أثرها أن انتصر على خصومه ، وأن ثبتت تعاليمه فى نفوس العرب الذين اتصلوا برسول الله وبأصحابه من أهل مكة والطائف والمدينة وما جاورها من البلاد والقبائل . أمّا من نأى عن هذه البقعة التى شهدت نشاط محمد سنوات تباعاً ، داعياً إلى الله وإلى دين الله ، فلم يتأثر بتعاليم هذا الدين الجديد ما تأثرت ؛ ولذلك انتقض على الدين وعلى أهله ، وحاول الرجوع إلى استقلاله السياسى وإلى استقلاله الدينى .

العوامل الأجنبية

ولم تكن العوامل الأجنبية أقل أثراً فى هذا الانتقاض من العامل الجغرافى . لقد كانت مكة والمدينة وما جاورهما من القبائل بعيدة عن الإذعان لنير الفرس والروم المتحكمين يومذاك فى شئون العالم . أمّا شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام ، وجنوب شبه الجزيرة المتصل بالفرس والقريب من الحبشة ، فكانا متأثرين بسلطان هاتين الإمبراطوريتين ، بل كانت فيهما مناطق نفوذ لهما ، وإماراتٌ تابعة لحكمهما . فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ وهذا

الحكم مناوأة الدين الجديد بشتّى الأساليب : بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتى ، وبالدعاية الدينية للمسيحية تارة ، ولليهودية ثانية ، وللوثنية العربية تارة ثالثة .

كان نشاط هذه العوامل كلها واضح الأثر لأول ما انتشر الخبر بوفاة النبى ؛ وكان هذا النشاط باديًا فى شىء من الحذر قبل وفاته . وسترى من أثر ذلك فى غضون هذا الكتاب ما لا يدع لديك مجالا للشك فيه . وقد أقامت هذه العوامل الجغرافية والأجنبية لنفسها منطقًا يغرى بالتصديق بها والانضواء تحت لوائها ، وهذا المنطق الذى أذاعه الدعاة بين مختلف القبائل هو الذى دعاهم للانتقاض وللفتنة .

منطق المرتدين والذين أبوا أداء الزكاة

قال الذين أبوا أداء الزكاة فيما بينهم : إذا كان المهاجرون والأنصار قد اختلفوا فى ولاية الأمر ، وكان رسول الله قد قبض ولم يوص بمن يخلفه ، فخليق بنا أن نحتفظ باستقلالنا احتفاظاً بالإسلام ديننا ، وأن يكون لنا ما جعله المهاجرون والأنصار لأنفسهم من حق فى اختيار من يقوم مقام رسول الله فينا . أمّا أن نذعن لأبى بكر أو لغير أبى بكر فليس ذلك من الدين ولا من كتاب الله فى شىء ، وإنما تجب الطاعة علينا لمن نُوليه نحن أمورنا .

ولعل الذين حدثتهم أنفسهم بمثل ذلك أن يكون لهم من العذر عنه أن رسول الله أقر لمدن العرب ولقبائلها حظًّا من الاستقلال الذاتى طوّع لأهلها أن يفكروا فى استرداد هذا الاستقلال كاملا بعد وفاته . فهو قد أبقى بَذْهان عامل الفرس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بذهان إسلامه وألقى نير المجوس . وهو قد ترك لسائر الأمراء ، فى البحرين وفى حضرموت وفى غيرهما ، ما كان لهم من سلطان بعد أن آمنوا بالله ورسوله . وكان أمره أن توزَّع الزكاة التى تجبى من بعض هذه الأنحاء على الفقراء من أهلها . ولم يفرض الإسلام الجزية إلا على أهل الكتاب . والعرب مسلمون كأهل المدينة ، فما لهم يؤدّون الزكاة لصاحب السلطان فى المدينة !! وما لهم لا تبقى صلتهم بالمدينة صلة وحدة فى الدين لا شأن لها بسياسة الحكم ! ! وإذا كان لأهل المدينة من السابقة فى الإسلام ما يجعلهم أدرى بفروضه وتعاليمه ، فحسبهم أن يبعثوا إلى سائر

البلاد والقبائل من يفقههم فى الدين على ما كان يصنع رسول الله، وأن يكونوا وإياهم أشبه شيء بعصبة أمم إسلامية. لا تبغى إحداها على الأخرى، ولا تلتمس الوسيلة للاعتداء على استقلالها.

دار هذا التفكير بخواطر بعض القبائل القريبة من المدينة ومكة والطائف. أما أهل اليمن وما حاذاها من جنوب شبه الجزيرة، وأما سائر الأصقاع البعيدة عن منزل الإسلام، فإنما أسلم الكثير من أهلها إكباراً لسلطان محمد الذى امتد فى سنوات قليلة حتى جاور الروم والفرس فى ملكيهما، فكان امتداده السريع معجزة بهرت الأنظار، وأخذت بالألباب، وجعلت الوفود من كل القبائل تُقبل إلى المدينة تترى معلنةً إلى النبى إسلامها وإسلام القبائل التى تنتمى إليها. أمَّا وقد ذاع فيها النبأ بوفاة النبى فلا عجب أن يتزلزل إيمانها وأن ترتد عن دين طرأ عليها، بل لا عجب أن تثور بهذا الدين وأن تتابع الذين يُذكون فيها نار الفتنة باسم العصبية والنَّعرَة العربية.

قيام مدعى النبوة

وقد خُدِع هؤلاء أوَّل ما قام فيهم من يدعى النبوة منهم ويزعم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد. خُدِعوا عن الإسلام بعد قليل من إقبالهم عليه؛ بل خُدِع بعضهم عنه والنبى ما يزال بين أظهر العرب لم يختر جوار ربه. سمع كثير من بنى أسد لطُلَيْحة حين ادَّعى النبوة، وأيَّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم. وسمع كثير من بنى حنيفة لمسيلمة حين بعث اثنين من رجاله إلى محمد يبلِّغانه أن مسيلمة نبيٌّ مثله، وأن له نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشًا قوم لا يعدلون. وسمع أهل اليمن للأسود العنسىّ ذى الخمار حين تولّى أمر اليمن وطرد منها عمَّال النبىّ. على أن رسول الله لم يُعِرْ هؤلاء المدعين كثيراً من عنايته، ثقة منه بأن قوة الحق فى دين الله كفيلة بإظهار كذبهم، وبأن إيمان المؤمنين بالله كفيل بالقضاء عليهم.

الأسود العنسى وتنبؤه

وكان هؤلاء المدّعون للنبوّة يشعرون بموقفهم ذاك من رسول الله، فلم يثر به أحد منهم ثورة الأسود العنسىّ ذى الخمار. فقد قيل إنه تنبأ وظهر أمره وقتل فى عهد الرسول. على أن جماعة من المؤرّخين يذكرون أنه سلك مسلك زميليه فصبر حتى قُبض النبى، ثم قام بالثورة على الإسلام. يقول اليعقوبىّ

فى تاريخه : « أما الأسود بن عنزة العنسىّ فقد كان تنبأ على عهد رسول الله . فلما بويع أبو بكر ظهر أمره واتّبعه على ذلك قوم ، فقتله قيس بن مكشوح المُرادىّ وفيروز الديلمىُّ ، دخلا عليه منزله وهو سكران فقتلاه » . ويقول الطبرى فى إحدى الروايات : « فأوّل حرب كانت فى الردّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كانت حرب العنسىّ . وكانت حرب العنسى باليمن » .

لم تكن شبه الجزيرة إذاً هادئة مطمئنة فى العهد الأخير من حياة الرسول ، ولم تكن كلها قد سكنت واستقرت تحت لواء واحد ودين واحد . بل كانت أسباب الفتنة تضطرم تحت ثراها ، ونُذُرُ الثورة تتبدّى فى جوها ؛ وكانت بوادر الانتقاض فى الشمال الشرقى وفى الجنوب كله تتأجج ناراً لا يسكّن من انتشارها إلا القوة الروحية التى أمدّ الله بها رسوله ، وإلا النصر الذى كان يلازم أعلامه . بل إن هذا النصر لم يُسكت مسيلمة ولا أسكت الأسود العنسىّ عن القيام فى قومهما يزعمان النبوة ، ليكون لبنى حنيفة ولليمن ولغيرهم من العرب أن يدّعوا لأنفسهم ما تدّعيه قريش لنفسها . ولولا حكمة رسول الله وحسن رأيه وبعد نظره وفضل الله عليه وعلى الإسلام لخيف أن تتلظّى الفتنة وأن يصلَى العرب جميعاً نارها فى حياته .

حال اليمن قبيل فتنة العنسى

وأغلب الظن أن فتنة العنسىّ قامت فى آخر عهد الرسول ، وسواء أصح ذلك أم صح أنها قامت فى عهد أبى بكر ، فإن لقصة هذه الثورة على ما يرويها المؤرخون طرافة تستوقف النظر وتكشف عن جوانب من النفس الإنسانية تدعو إلى التفكير . فقد بعث رسول الله بين رسله إلى الملوك رسولا إلى كِسْرَى عاهل الفرس يدعوه إلى الإسلام ، فلما تُرْجِمَ له كتاب النبىّ استشاط غيظاً وأرسل إلى بازان[1] عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز . وكانت الروم فى ذلك الوقت قد غلبتْ كسرى ووهّنت من أمره . فلما تناول بازان رسالة سيّده بعث بها إلى محمد ، فردّ محمد عليه ينبئه بأن شيرويه خلَف أباه كسرى ، ويدعوه إلى الإسلام وأن يَبْقَى عاملا له على اليمن . وكانت أنباء الفتنة فى فارس واعتلاء شيرويه عرشها وانتصار الروم عليها قد

(١) بازان أو بدهان على اختلاف فى رواية الاسم .

اتصلت ببازان ؛ لذلك أسرع إلى تلبية دعوة محمد ، وأقام هذا الفارسىّ عاملا للنبى العربى على أهل اليمن ، بعد أن كان عامل الفرس عليها .

ومات بازان ، فقسّم رسول الله سلطانه بين أشخاص عِدّة ، منهم شَهْر ابن بازان الذى تولّى أمر صَنْعاء وما جاورها ، ومنهم أشخاص من أهل اليمن ، وآخرون من رجاله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . وأن هؤلاء الولاة لينظّم كل منهم أمر ولايته إذ جاءتهم كتب من الأسود العنسىّ يُنذرهم فيها أن يردّوا ما بأيديهم فهو أولى به . وكانت تلك أوّلَ ظاهرة لفتنته .

بدء فتنة العنسى

وكان الأسود كاهنًا يقيم بجنوب اليمن ، وكان مشعبذاً يصطنع فنونًا من الحيل ويستهوى الجماهير بعباراته . ولقد تنبأ ولقّب نفسه رَحْمانَ اليمن ، أى الذى ينطق باسم الرحمان ، كما لقّب مسيلمة نفسه رَحْمانَ اليمامة[1] . وكان يزعم أن له شيطانًا يظهره على كل شىء ، ويظهره على خُطَط أعدائه . وكان يقيم بكهف خبّان من بلاد مَذْحِج . وقد هوت إليه جماعة كبيرة من العوام سُحِرتْ بحديثه ، وفُتِنت بما يزعم من حديث شيطانه .

نهض الأسود على رأس هذه الجماعة بعد أن أعلن الفتنة ، وسار إلى نَجْران فأجلى عنها خالد بن سعيد وعمرو بن حزم أميرى المسلمين عليها . وانضم من أهل نجران إلى الأسود مَنْ بهرهم انتصاره ، وساروا معه إلى صنعاء حيث لقى شهر بن بازان فقتله وهزم جنده . عند ذلك فرّ المسلمون المقيمون بصنعاء وفى مقدمتهم مُعاذ بن جبل ؛ ولحق خالد بن سعيد وعمرو بن حزم بالمدينة . وتمّ للأسود الغلب ، وصار إليه ملك اليمن ، وأسلم الناس لأمره ورأيه ، ودانت له البوادى والحواضر ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن .

---

(١) فى لسان العرب أن الرحمن على فعلان لأن معناه الكثرة . وهو اسم الله لا يكون صفة لغيره كالرحيم . وفى اللسان أيضاً أن الرحمن عبرانى والرحيم عربى . ويذكر بعض المستشرقين أن الرحمن اسم الإله فى الجنوب من شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وجد فى نصوصهم ، وأنه لم يكن معروفاً عند أهل الحجاز .

ولقد تعجب إذ تعلم أن الأسود لقى شهر بن بازان بصنعاء وليس معه إلا سبعمائة فارس ، منهم من خرج معه من مذحج ومنهم من انضم إليه من نجران . وبهذا العدد القليل انتصر هذا الكاهن المشعبذ على أهل هذه الأصقاع واستطار أمره بينهم كالحريق ، ولم تجد قوة منهم إلى مقاومته سبيلا . ولعلك إن تلتمس لذلك تأويلا تجده فى أن هذه البلاد كانت خاضعة لفارس ، ثم خضعت من بعدهم للمسلمين من أهل الحجاز . وأنت تعرف ما كان بين اليمن والحجاز من خصومة ترجع إلى أقدم الحقب . فلما قام هذا العنسى يسترد اليمن لأهل اليمن لم يجد من يقاومه ، ولم يجد الفرس أنصار شهر وأبيه ، ولا وجد المسلمون أبناء الحجاز نصيراً من أهل البلاد يدفع عنهم كيد الأسود وشعبذته . ولعلك واجد هذا التأويل كذلك فى أن هذه البلاد كانت مسرحاً لأديان مختلفة ؛ كانت فيها اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ؛ وكانت هذه الأديان تجاور فيها أصنام العرب وعبادتها ، ثم كان الإسلام الحديث بين هؤلاء اليمنيين لما تقوّ فى نفوسهم أصوله . فلما قام ذلك المتنبئ فيهم يدعوهم إليه ويهيب بقوميتهم ويزعم أنه يطرد الأجانب من بلادهم ، أسرعوا إليه ملبين دعوته ؛ فلم يكن أمام المسلمين إلا الفرار ، ولم يكن أمام البقية الباقية من الفرس إلا الإذعان أو الموت .

العوامل التى أدت إلى فتنة العنسى

مواقف رسول الله من فتنة العنسى

بلغت هذه الأنباء محمداً بالمدينة وهو يعدّ العُدّة لغزو الروم ، وللانتقام من مؤتة ، تعزيزاً لهذا الجانب المخوف بالخطر من جوانب شبه جزيرة العرب ؛ وكان لذلك يجهز جيش أسامة . أفيصرف هذا الجيش إلى اليمن يسكّن ثائرتها ، ويردّ على المسلمين هيبتهم ؟ ! أم يستعين على هذا الأسود بمن كان باليمن من المسلمين ، فإن قدروا عليه فذاك ، وإلا كان انتصار جيوش المسلمين على الروم ، والروم قد غلبوا الفرس من زمن غير بعيد ، جديراً بأن يعيد الأمر فى شبه الجزيرة إلى نصابه ؛ فإن لم يعدْ وجّه محمد جيشه ليقمع الأسود وغير الأسود من الخارجين عليه ؟ ! هذا الرأى الأخير هو ما اطمأن محمد إليه . لذلك بعث رسوله وبر بن يحنّس بكتاب إلى زعماء المسلمين فى اليمن يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض فى الحرب ، والقضاء على الأسود إمّا غيلةً وإما مصادمة ، وأن

يستعينوا على ذلك بمن يرون عنده نجدةً ودينًا . واكتفى محمد من أمر اليمن بهذا وجعل كل همه لتنظيم جيش أسامة والتغلب على الروم .

ومرض رسول الله من بعد ذلك مرضًا وقف بسببه جيش أسامة عن المسير . أما الأسود العنسى فأخذ يستمتع بنصره وينظّم ملكه ، يقيم القوّاد على الجيوش والعمال على الإمارات ؛ بذلك ثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل اليمن إلى عدن ، كما دانت له الجبال والبوادى من صنعاء إلى الطائف .

وزيرا الأسود وزوجه وقائد جنده

واستعمل الأسود على جنده قيس بن عبد يغوث ، وجعل وزيريه فيروز وداذويه الفارسيين . ثم إنه تزوّج آزاد امرأة شهر بن بازان ، وكانت ابنة عم فيروز . بهذا وبذاك انضم العرب والفرس إلى لوائه . فلما رأى من تعاظم شأنه ما رأى خيّل إليه أنه دانت له الأرض ، فلم يبق له إلا أن يأمر فيطاع .

بدء الانتقاض على الأسود

على أن العوامل التى أدّت إلى انتصاره قد تضافرت من بعدُ على الائتمار به . وذلك أنه لما استغلظ أمره وأثخن فى الأرض استخف بقيس وبفيروز وداذويه ، وجعل يرى فى الأخيرين وفى سائر الفرس من تنطوى أضالعهم على المكر به .

وعرفت امرأته الفارسية ذلك منه ، فثار فى عروقها دم قومها ، وتحركت فى نفسها عوامل الحقد على الكاهن القبيح ، قاتلِ زوجها الشاب الفارسى الذى كانت تحبه من أعماق قلبها . ولقد استطاعت بسجيّتها النسوية أن تخفى ذلك عنه ، وأن تسخو فى البذل له من أنوثتها سخاءً جعله يركن إليها ويطمع فى وفائها له . لكنه شعر بأن الرجال الذين حوله ، وزيريه وقائد جيشه ، لا يُضمرون له من الولاء ما يراه حقًّا عليهم لوليّ نعمتهم . وإذ كان الجيش أشد ما يُحْذَرُ ويخاف فقد دعا إليه قيس بن عبد يغوث وأنبأه أن شيطانه أوحى إليه يقول : « عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار فى العز مثلك ، مال ميل عدوك ، وحاول ملكك ، وأضمر على الغدر » . وأجاب قيس : « كذب وذى الحمار ، لأنت أعظم فى نفسى وأجلّ عندى من أن أحدّث بك نفسى » . وأجال الأسود فى قيس نظره من مفرق رأسه إلى أخمصه ، وقال له :

« ما أجفاك ! أتكذّب الملك ! قد صدّق الملك وعرفت الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك » .

وخرج قيس من عنده وكله الريبة فيما يُضمر له ، ولقى فيروز وداذويه فذكر لهما ما جرى بينه وبين الأسود وسألهما رأيهما فقالا : نحن فى حذر .

المؤامرة للقضاء على العنسى

وإنهم لفى ذلك إذ أرسل الأسود إليهما يحذرهما مما يأتمران مع أصحابهما به . وخرجا من عنده ولقيا قيساً وهم جميعاً فى ارتياب وعلى خطر عظيم .

واتصل نبأ ما يجرى ببلاط ذى الخمار بمن بقى من المسلمين باليمن أو على مقربة منها ، وذكروا رسالة النبىّ لهم ، فأرسلوا إلى قيس وأصحابه أنهم وإيّاهم على رأى واحد فى أمر الأسود . وعرف المسلمون الذين أقاموا بنجران وبغيرها من تلك الأنحاء سرًّا من هذه الأنباء ، فكتبوا إلى زملائهم القريبين من الأسود أنهم ورجالهم طوع أمرهم فى قتاله . واستمهلهم زملاؤهم وطلبوا إليهم أن يلزموا أماكنهم ، وألا يقوموا بأمر يدعو لريبة فيهم أو ينبّه أصحاب الأسود لهم .

اشتراك زوجه فى المؤامرة

وإنما كان ذلك رأى المقيمين على مقربة من الأسود لأنهم رأوا أخذه غيلةً أدنى إلى النجاح من محاربته . فقد دخلت آزاد زوجه فى مؤامرتهم وإن تظاهرت له بالحب أعظم الحب . وطوّع لها اتصالها بفيروز وداذويه وقيس أن تدبّر وإياهم أمر اغتياله . دلّتهم على حجرة نومه ، وأظهرتهم على أن القصر الذى تقيم به معه حوله الحرس من كل ناحية إلا من خلف هذه الحجرة ؛ فلينقبوها إذا كان الليل ، وليدخلوا من النقب ، وليقتلوا غريمهم ؛ فإن يفعلوا فقد تخلّصوا وخلّصوها منه .

مقتل الأسود العنسى

وقد فعلوا . فلما كان الفجر تنادوا بشعارهم الذى اتّفقوا مع أصحابهم عليه ، ثم نادوا بأذان الإسلام وقالوا : نشهد أن محمداً رسول الله . وأن عبهلة — وهو اسم الأسود العنسى — كذّاب ؛ وألقوا إليهم رأسه . وأحاط بهم حرس القصر ، وتنادى الناس فى المدينة فخرجوا فى عماية الصبح ، واضطرب الأمر ، ثم استقر على أن يتولاّه قيس وفيروز وداذويه . وكان لآزاد فى استقراره كما كان لها فى اضطرابه من قبل أكبر الأثر .

أفقتل العنسىّ قبل موت الرسول أم بعده ؟ ذلك ما اختلف فيه . وقد ذكرنا رواية اليعقوبى من قبل . أما الطبرى وابن الأثير فيذكران أنه مات قبل أن اختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وأنه صلى الله عليه وسلم أوحى ذلك إليه ليلة حدوثه فقال : « قُتل العنسىّ ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين » . قيل من قتله ؟ قال : « قتله فيروز » .

والرواية الأخرى تذهب إلى أن موت العنسى لم يصل النبأ به إلى المدينة إلا بعد أن قُبض رسول الله ، وأنه كان أول بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة .

وتجرى الرواية بأن فيروز قال : « لمَّا قتلنا الأسود عاد أمرنا كما كان ، إلى معاذ بن جبل فصلّى بنا ونحن راجون مؤملون لم يبق شىء نكرهه إلا تلك الخيول من أصحاب الأسود . ثم جاء موت النبى فانتقضت الأمور واضطربت الأرض » .

كيف اضطربت ، ولماذا اضطربت ؟ تفصيل ذلك لا يدخل فى نطاق هذا الفصل ، وحسبنا ما أجملنا عنه فى أوله . وسنتناول حوادثه فى موضعها من جهاد أبى بكر أهل الرِّدّة .

وإنما أفضنا فى حديث عبهلة وثورته بالمسلمين فى اليمن لتواتر الروايات بأنه قام بهذه الثورة فى عهد الرسول . فأما ما كان من أمر اليمن على عهد أبى بكر فيتخطى العنسى وثورته ومقتله ، ويتناول ما تم بعد ذلك من أحداث نفصّلها فى موضعها .

تلظى الجنوب كله بنذر الثورة

كانت ثورة اليمن هذه أعنف مظاهر الانتقاض على الدين الجديد فى بلاد العرب حين وفاة النبى . لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسى من القبائل قد كان يتلظى بنُذُر الثورة فى هذا العهد كذلك ، فكان المسلمون فيه على حذر يلْجَئون إلى المصانعة حيناً وإلى البطش حيناً آخر ، ليظل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسموعة . ولا عجب أن يكون ذلك أمر حواضر وبوادٍ تبعد عن منزل الوحى بمكة والمدينة ، وتتصل بالفرس وتبادلهم التجارة وتقرّ لهم بتفوق الحضارة . بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية فى تحريك هذه الحواضر والبوادى لتنتقض على الدين الجديد والسلطان الناشئ .

تنبؤ مسيلمة ابن حبيب باليمامة

أشرنا إلى بعث مسيلمة بن حبيب من بنى حنيفة رسولين إلى محمد بالمدينة يحملان رسالة جاء فيها : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليكم ، أما بعد فإنى قد أُشركت فى الأمر معك ، وإن لنا لنصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » . وسأل النبى الرسولين حين سمع الكتاب : فما تقولان ؟ قالا : نقول كما قال . فنظر إليهما مغضباً وقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب إلى مسيلمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيامة الكذاب . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين » .

لم يَغْفُل رسول الله عما تنطوى عليه رسالة مسيلمة من نذير . لذلك بعث من المسلمين نهاراً الرحّال ، وكان قد فقّهه الدين ، ليشغب على مسيامة ، وليفقه المسلمين من أهل اليمامة فى الإسلام . وسنرى من بعدُ كيف انضم نهار إلى مسيلمة ، وكيف شهد بأنه شريك محمد فى الرسالة . بذلك ازداد مسيلمة نفوذاً وازداد ادعاؤه انتشاراً . وتجاوبت باليمامة أصداء انتصار العنسى باليمن فقوّى تجاوبها ساعد مسيامة وقَتّ فى أعضاد المسلمين . لكن رسول الله لم يتّجه بسياسته إلى قمع هذه الفتنة قبل استفحالها ، موقناً أن الله ناصره على الروم فى الشمال ، وأن انتصاره عليهم سيكون له الأثر الحاسم فى القضاء على أسباب الانتقاض والثورة الداخلية فى أنحاء بلاد العرب .

سياسة رسول الله إزاء الفتنة

فقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم متجهة إلى حماية التخوم العربية فى الشمال من عدوان هِرَقْل ورجاله عليها . فهرقل هو الذى دحر الإمبراطورية الفارسية ، وهو الذى رد الصليب الأعظم إلى بيت المقدس ، وهو لذلك الذى تخشى صولته . وقد ارتد جيش المسلمين فى مُؤْتة فلم يقوَ على قتال الروم وإن لم ينهزم أمامهم . وكانت تبوك غزوة موفقة ، لكنها لم تُبعد المخاوف من انحدار الروم إلى بلاد العرب . فإذا استطاعت قوات المسلمين أن تظهر على الروم فى غزاة حاسمة قوّى ذلك من عزم المنتشرين منهم فى قبائل العرب ، فلا يلبث كل منتقض عليهم أن يرجع عن انتقاضه ، وأن يسلم المقادة إليهم طائعاً أو كارهاً . وكيف لا يفعل وقد تغلغل المسلمون فى أنحاء شبه الجزيرة من

الشمال إلى الجنوب ، وصاروا قوة يحسب حسابها ؛ فلم يقوَ مسيلمة فى اليمامة ، ولا لقيط فى عُمان ، ولا طُلَيحة فى بنى أسد ، أن يناصبوها العداوة فى جهر وإعلان .

تربص المتنبئين بالمسلمين

لكن لقيطًا وطُليحة كانا كمسيلمة يتربَّصان لإعلان عصيانهما أن تدور الدوائر على المسلمين . وأقام هؤلاء الثلاثة كلٌّ فى ناحيته ينشر دعوته فى غير ضجة أو جلبة ، ودون أن يطعن على النبي الهاشمى أو ينتقص من رسالته . وإنما كانت دعواهم أنه نبي ، وأنهم أنبياء مثله ، بعث فى قومه وبعث كلٌّ منهم فى قومه ، وأنهم يريدون لأقوامهم الهدى كما يريد هو لقومه الهدى . وبوسائل تنقصها جرأة الأسود العنسى وإن لم ينقصها دهاؤه هيَّئوا حول المسلمين المقيمين بين أظهرهم جوّ قلق وتربُّص ، تتلظى نيران الفتنة تحت رماده ريثما تتقد فيه .

ولم يكد النبأ بوفاة الرسول ينتشر فى بلاد العرب حتى بدأت تُنذُر هذه الفتنة تتحرك فى كل أنحاء شبه الجزيرة . وقد تحركت فى صور مختلفة وألوان متباينة تباين العوامل التى أثارتها . وسنفصل ذلك من بعد فى وضوح وجلاء . لكنا نقف من حديث هؤلاء المتنبئين وتربصهم بالإسلام عند أمور لها بالعرب حين وفاة النبي أوثق اتصال .

العرب وفتنة المتنبئين

أوّل هذه الأمور أن رسول الله قُبض وبوادر الفتنة تجرى تُنذُرها فى جو شبه الجزيرة ، بل يوشك قسم كبير منها أن يضطرب أشد اضطراب . فقد رأيت كيف استغلظ أمر الأسود وامتد ملكه من أقصى الجنوب عند حضرموت إلى مكة والطائف ، ثم رأيت كيف تربص مسيلمة وطُليحة بالمسلمين . وهذه الربوع التى أعلنت العصيان على دين محمد وسلطانه كانت أكثر بلاد شبه الجزيرة حضارة وأضخمها ثروة ، كما كانت أكثرها ببلاد الفرس اتصالا .

فلا عجب وذلك شأنها أن يلفت انتقاضها نظر الخليفة الأول ، وأن يطيل تفكيره فى تدبير سياستها ، ليعيدها إلى حظيرة الإسلام ، وليقر فيها الأمن والسلام .

تحريك الاضطراب باسم الدين ، وسببه

والأمر الثانى الذى تدل عليه فتنة الأسود وتربص مسيلمة وطليحة أن الاضطراب الدينى بلغ بين القوم فى ذلك العصر أن سهّل تحريك النفوس باسمه ، ولم يكن ذلك يرجع إلى تعصب الناس لدين من الأديان ، بل كان يرجع على العكس إلى عدم استقرار العقيدة فى النفوس استقرار طمأنينة وسكينة . فالنصرانية واليهودية والمجوسية والأصنام كانت كلها تتجاور ، وكان لكل منها أنصار ظاهرون أو مستترون ؛ لكنها كانت جميعًا موضع الجدل : أيها الحق ، وأيها أدنى إلى تحقيق الخير والسعادة للناس ، وهذا هو ما سهّل على الذين ادّعوا النبوة أن يطالعوا الناس بمزاعمهم ، وأن يخدعوهم بألوان من المظاهر يتخذونها آيات صدقهم . وبهذه الوسيلة استطاع المتنبئون أن يجمعوا حولهم من الأتباع ما جمعوا ، وأن يُحرزوا أوّل أمرهم من النجاح ما أحرزوا .

العامل الوطنى من أسباب الاضطراب

ولم يكن ادّعاء النبوة وتصديق الناس هذا الادعاء هو العنصر الجوهرى فى نجاح هؤلاء المدّعين . فقد رأيت أن الأسود اعتمد على عوامل أخرى ، فى مقدمتها بَرَمُ أهل اليمن بالفرس كبَرَمِهم بأهل الحجاز . وسترى من ذلك فى أمر مسيلمة وطليحة ما يؤيد قولنا كل التأييد . ولو أن الإسلام كان قد استقر فى النفوس وبلغ منها مبلغ العقيدة والإيمان لما قامت لواحد من هؤلاء المدّعين قائمة . فللعقيدة المتأصلة سلطان على النفوس قلّ أن يغلبه سلطان . لكن أهل هذه الأصقاع لم يكونوا قد آمنوا وإن كانوا قد أسلموا ، فلما أتيح لهم أن يخلعوا إسلامهم باسم القومية أو باسم غيرها لم يصدّهم عن ذلك إيمانٌ حق ، فاندفعوا وراء الأسود وغير الأسود من المتنبئين .

ويزيد رأينا هذا تأييداً ما كان من بقاء مكة والطائف على الإسلام . صحيح أن أهل اليمن بدأ فيهم الإسلام واطمأن إلى السلطان الحاكم منذ دان بازان بدين الحق ، وكان ذلك قبل أن يطمئن الإسلام إلى سلطان الحاكم بمكة والطائف . لكن قيام رسول الله بمكة سنوات الدعوة الأولى ، وهى تزيد على عشر ، واتصاله بالطائف وأهلها أثناء ذلك ، ترك من الأثر الدينى فى نفوس المكيين والثقفيين ما لم يتركه إسلام بازان والفرس المحيطين به فى اليمن . وتعاليم

رسول الله كانت أبقى أثراً فى مكة والطائف ، حتى مع ثورتهما عليه ، من تعاليم مُعاذ بن جبل باليمن وإن تمتع من حماية بازان بما تمتع به .

أثر فتنة العنسى فى البلاد المحيطة باليمن

الأمر الثالث الذى نستخلصه ، أن فتنة اليمن شجَّعت اليمامة وشجَّعت بنى أسد على القيام بفتنتهم إثر وفاة النبى ؛ فقد كان طُليحة ومسيلمة يخشيان قوة المسلمين ويريان أن لا قِبَل لهما بمقاومتها ، ولذلك لم يثورا بها ولم يخرجا عليها . فلما اجترأ الأسود على رفع لواء العصيان ولقى من النجاح ما لقى وأثار مخاوف المسلمين ، امتدّت عدوى الجرأة منه إلى طُليحة وإلى مسيلمة ، ثم زادهما جرأة أن اختار النبى الرفيق الأعلى . ولو أن الأسود لم يقم قومته ولم يُعلن فتنته لبقى الآخران على استحياء فى إعلان فتنتهما ، ولما جرؤ واحدٌ منهما على مواجهة سلطان المسلمين .

ولم يقض موت الأسود على أسباب الفتنة التى كانت تتلظَّى يومئذ فى أنحاء شبه الجزيرة ، بل بقيت أسباب هذه الفتنة تضطرم ويزداد اضطرامها حتى اندلعت بوفاة الرسول .

رأى المستشرقين فى الفتنة، وسببها

ويعلل بعض المستشرقين هذه الظاهرة فى بلاد العرب لذلك العهد بما كان بين أهلها من تباين فى نوع الحياة قلّ أن يجد الإنسان له فى غير هذه البلاد نظيراً ، وبما أدى هذا التباين إليه على حِقَب التاريخ من خصومات لم تهدأ . فحياة الحضر وحياة البدو تتجاوران فى هذا المحيط تجاورًا عجيباً . وبين البداوة والحضارة من التباين ما يجعل الوحدة القومية لبلادٍ ذلك شأنها أمراً غير ميسور . ثم إن حياة البداوة تجعل الإذعان لحاكم على النحو الذى يفهمه أهل الحضر مستحيلا أو يشبه المستحيل . فالبدوى لا يعدل باستقلاله الفردى شيئًا ، والقبيلة البادية ترى فى استقلالها حياتها ، وترى كل تحيف من هذا الاستقلال عدوانًا عليها لا بد من دفعه . وقد كان هذا وما يتصل به سبب الخصومة التى تأصلت على الزمان بين اليمن وأهل الشمال .

والمستشرقون الذين يبدون هذا الرأى يذهبون إلى أن هذا التباين فى طباع أهل البادية وأهل الحضر ، وما جرّ إليه من خصومة بين الشمال والجنوب . كان له أثر بالغ فى اضطراب العرب قبيل وفاة النبى وفى السنة الأولى من خلافة أبى بكر .

فالإسلام دين توحيد فى العقيدة ، وبذلك قضى على عبادة الأصنام ، فامتد الإيمان بالله الواحد الأحد إلى أنحاء بلاد العرب جميعًا . أو لا يخشى العرب أن يمتد الأمر من وحدة الإيمان بالله إلى وحدة سياسية تجنى على استقلال أهل البادية وتثير الخصومات القديمة ؟! ذلك ما دار بخواطرهم فيما يرى هؤلاء المستشرقون ، وذلك ما أدى إلى انتقاض اليمن وغير اليمن فى ذلك العهد .

أثر العامل الأجنبى فى إيقاظ الفتنة

وسواء أصح هذا التعليل أم لم يصح ، فلسنا نستطيع أن نتجاهل العامل الأجنبى فى تحريك البواعث التى أدت إلى انتقاض العرب وردتهم . لقد رأى عاهل الفرس وإمبراطور الروم فى رسالة محمد إليهما وإلى غيرهما من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما جعلهما يعملان على إيقاظ نار الفتنة فى بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد يجمع كلمتها ويضاعف قوتها . ولا شىء كالفتنة يضعضع العزائم ويفتّ فى أعضاد الأمم .

انتقاض العرب على النبى

وأيًّا كانت الأسباب التى أدت إلى فتنة العَنْسى ، ثم إلى فتنة طُليحة وفتنة مسيلمة ، وإلى انتقاض العرب على سلطان المسلمين حتى فيما جاور المدينة ، فإن الأمر الثابت أن وفاة النبى بعثت كل أسباب الفتنة من مرقدها .

كيف دبّر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة والقضاء عليها ؟ وكيف استطاع أن يتغلّب على عوامل الفتنة وأن يجمع كلمة العرب ؟ وكيف مهّد للإمبراطورية الإسلامية كى يقيمها خلفاؤه على أقوى دعامة وأمتن أساس ؟

ذلك كل عهده ، وفى هذا الكتاب حديثه